تأنيب اللّسان عن إذاية العباد في قصيدة "يا لساني الموذي" لسيدي لخضر بن خلوف دراسة تحليليّة

د. حاج علي عبد القادر
جامعة مستغانمّ.

-التّعريف بسيدي لخضر بن خلوف :

هو لخضر (لكحل) بن عبد الله بن خلوف، وطين جبال سيدي موسى نواحي عشعاشة، ولد في أواخر القرن الثّامن الهجريّ، وتوفي عن عمر يناهز المائة وخمساً وعشرين سنة ونصف السّنة. يعود نسبه إلى سيّدنا عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه، مروراً بإدريس الأكبر الّذي أتى إلى المغرب هارباً من أعدائه.

أُلهم سيدي لخضر بن خلوف منذ صغره بعلمٍ غزير وذكاءٍ خارق. قرأ في الكتاتيب على يد أكثر من درّار. وقضى شبابه في مزغران للدّراسة وطلب العلم، انضمّ إلى صفوف الجيش الجزائريّ في عهد السّلطان خير الدّين، وخاض معه عدّة معارك ضدّ الحملات الإسبانيّة على مستغانم.

بعد مسيرة طويلة من الجهاد وطلب العلم لزم الدّعاء والتّضرّع لله عزّ وجلّ والتّقرّب إليه، مادحاً خير الأنام محمّداً عليه الصّلاة والسّلام، مؤنّباً نفسه على أنّها لم تقم بواجباتها، ونلمس ذلك في قصائده.

وفي هذه الدّراسة أحاول استخلاص القيم الدّينيّة والمواعظ والأخلاق الّتي أراد الشّيخ زرعها في المجتمع، عن طريق تحليل قصيدة "يا لساني الموذي"، الّتي تعكس زهد وتديّن سيدي لخضر بن خلوف، والّتي من خلالها يعطينا درساً في صون اللّسان وسوء عاقبة من يطلق له العنان في إذاية بني الإنسان.

وقد تمّ تقسيم القصيدة إلى وحدات، منها ما حوت وصايا، ومنها ما يحوي علاجاً لمن لم يستطع ملازمة طريق الصّواب، ومع بداية كلّ وحدة نجد الشّيخ يردّد لازمةً يذمّ فيها اللّسان، وطبعاً لفظ "اللّسان" هنا لا يخفي على أحد أنّه يقصد به ما ينطق به الإنسان من كلام مؤذٍ، وهناك لازمةٌ أخرى في نهايات الوحدات فيها مناجاة للّه عزّ وجلّ، ورجاءٌ في أن يقبض روحه شهيداً، كما خصّص الشّيخ في هذه القصيدة أبياتاً في مدح رسولنا الكريم عليه أزكى الصّلاة وأفضل التّسليم، كما في باقي قصائده. بعد إعطاء نظرة عامّة عن محتوى القصيدة، أبدأ في تحليل كلّ وحدة على إنفراد مبرزًا القيم الدّينيّة والخلقيّة.

***-الوحدة الأولى:**

يا لْسَاني الْمُوذي وَرَّدْتْ لي العَارْ * مَنْ افْعَايْلكْ مَا صُبْتْ للرَّبّْ مَا نْعيدْ**
مَا تْقِــيلْ بْنَادَمْ ولاَ تْــقِيلْ جَــارْ * كَالْمَنْجَلْ تَحْصَدْ في حَوْرْتَكْ حْصِيدْ**
كَاللَّفْعَــة تَلْــدَغْ في النَّاسْ بَالْجْهَارْ * وُسَمَّكْ سْقِيتْ بِيهْ الْقْرِيبْ وَالْبْعيدْ**
يَا الله يَا مْــدَوَّرْ لَفْــلاَكْ بَالْقْدارْ * بْجَاه نَبِيكْ وعَرْشَكْ ميتّنـــي شْهيدْ[1]**

في هذه الأبيات يصف الشّيخ اللّسان المؤذي بنعوت دنيئة فيشبّهه بالمنجل في الإتيان على كلّ ما يصادفه في طريقه، فلا يُستَثنَى من أذاه

إنسان؛ بعيداً كان أو قريباً كالجار، ثمّ يشبّهه بالأفعى ولدغتها، والسّمّ الّذي يفتك بالقلوب ويحطّم الأفئدة. ونلاحظ أنّ الشّيخ في هذا التّشبيه يُجاري ما يُتداول بين النّاس بنعتهم للشّخص بذيء اللّسان بالأفعى، إذن فهو يتوخّى مخاطبة النّاس بلسانهم؛ سائراً على نهج رسولنا الكريم عليه الصّلاة والسّلام الّذي يقول في الحديث الشّريف: "**لا يستقيمُ إيمانُ العبد حتّى يستقيمَ قلبُهُ، ولا يستقيمُ قلبُه حتّى يستقيمَ لسانه، ولا يدخلُ الجنّةَ رجلٌ لا يَأْمَنُ جارُه بوائقَه.**"[2]

***-الوحدة الثّانية:**

يا الْمُوذي دْمَرْتْني لْلشُّومْ وَالصْهَادْ كَالمَزَّبْرَة تْعَرْقَبْ في الدَّالْيَّـــة زْبيرْ
مَنْ نْظَرْتُو بَالعَيْنْ تْبُـــوحْ بيهْ عَادْ تْباتْ تَهْبَشْ في النَّاسْ الكْبيرْ وَالصْغيرْ
مْسَاعْـفَاتَكْ عَيْنَكْ للسُّوءْ وَالفْسَادْ وانْتَ مْعَاوَنْـها بْشَدَّ الْكَذْبْ والزْفيـرْ
كَانْ شَفْتْ الصَّابَـة غَرْبَلْهَا غْبَـارْ ولاَ يْنَحْنَـحْ قْصَـاهَ البَـرْدْ والجْليـدْ
أَنْتَ مْعَاوَنْـهَا بَالْعُـصْيَانْ والزيَارْ لُو تْصيبْ الرَّفَـا فـي كُلْ يُومْ عيـدْ
يَا الله يَا مـدَوَّرْ لَفْـلاَكْ بَالْقْـدارْ بْجَاه نَبيـكْ وعَرْشَكْ ميتّنـي شْهيدْ[3]

هنا يتطرّق الشّيخ إلى أمراض اجتماعيّة يسبّبها اللّسان، حذّرنا منها ديننا الحنيف، كالغيبة والنّميمة، يقول: "**مَنْ نْظَرْتُو بَالعَيْنْ تْبُوحْ بـيهْ**"، أي أنّ هناك من لم يسلم من لسانه لا كبير ولا صغير، فكلّ من تقع عليه عيناه يصبح هدفاً للسانه، فيحوّل نعمة البصر الّتي وهبها الله له إلى وسيلة لإذاية العباد. كما يحذّر من صفة الكذب الّتي تولّد الشّؤم والفساد. وجاء في القرآن الكريم في الدّعوة إلى احترام النّاس قوله تعالى: "**يا أيّها الّذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظّنّ إنّ بعض الظّنّ إثم ولا تجسّسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً**

أيحبّ أحدُكمُ أَن يَأكُل لحمَ أخيه ميّتاً فكَرهتمُوهُ واتَّقُوا الله إنَّ الله توَّابٌ رَحيمٌ"./الحجرات12/. وفي هذه الآية "نهى الله عن الغيبة، وهي أن يذكر الإنسان أخاه المسلم في غيبته بما يكرهه، سواءٌ أكان الذِّكر صراحةً أم كنايةً أم إشارةً أم رمزاً، وسواءٌ أكان ما يذكره متعلّقاً بدينه أم دنياه، وبخُلُقه أم خَلقه؛ لأنّ في ذلك إثارةٌ للعداوة بين الناس."[4]

***- الوحدة الثّالثة :**

يَا المُوذي وَاكْ شْمَتْنِي بْلا عْلامْ وَالنَّاسْ وَاقفَة تَضْرَبْ في زْمَامَرْ وَالطْبَلْ
يَاكْ رَبِّي قَالْ لِـنَا الْغَـتبة حْـرامْ وَانْتَ مْجرِّي نَفْسَكْ لَغْـوَامَقْ السْفَلْ
اسْتَحْسَنْ بَالصَّلاَةْ وزِيد في الصِّيَامْ وقِـيسْ دَارَ الدَّنْيا يَا نَاقصْ العْقَـلْ
عْلاشْ مَا تَقْرَاشِي لَصْحُوفْ وَالجْفَارْ وَتْكَثَّرْ الصَّلاَةْ عْلَى الفَارَسْ الوْكيـدْ
سِيـدْنَا مُحَمَّـدْ مَصْـبَاحْ كُلْ دَارْ عْلِيهْ صَلَّى الله قدْ الشْعِيرْ والسْمِيـدْ
يَا الله يَا مْـدَوَّرْ لَفْـلاَكْ بَالْقْـدارْ بْجَاه نَبِيكْ وعَرْشَكْ ميتّنـي شْهيدْ

يبيّن الشّيخ أنّ حَبلَ الكذب قصير وأنّ الغيبةَ تشوّهُ صُورةَ صاحبها في وسطه الاجتماعيّ. وفي هذه الوحدة دعوة إلى التّمسّك بالدّين، ولزوم الصّوم والصّلاة، واتّباع سنّة الرّسول عليه الصّلاة والسّلام، فهي السّبيل إلى تهذيب النّفس وصونها من الدّنايا، حيث يقول الرّسول صلّى الله عليه وسلّم: "**ألا أُخبرُكُم بأَيسَر العبَادة وَأهوَنهَا عَلىَ البَدن: الصَّمتُ وحُسنُ الخُلق.**"[6]

***-الوحدة الرّابعة:**

يَا الْمُوذي فَعْلكْ قْبيحْ كالرْصَاصْ * مَالْكَكْ عْلَى غَفْلَة تْحَشْمُو حْشيمْ**
كانْ شُفْتْ الفَضَّة تْرَجَّعْهَا نْحَاسَ * وَتْزيدْ تَحْلَفْ بَنْعَايَمْ رَبْنَا العْظيـمْ**
بْنيتْ خَيْمَة بَالطُّوبْ ولاَ لِهَا سَاسْ * سَاسْها وَاقفْ فُوقْ مْشَابَرْ الجْحيمْ**

رَاكْ تَتْمَشَّى يَا الْــمُوذي بْلا ابْصَارْ * رَاهْ قَلْبي مَنْ فَعْلكْ يَرْتْــعَدْ رْعيدْ**
مْشَمَّرْ عْلَى زْنُودكْ للحَشْدْ والخْبَارْ * وْمَنْ لْــقيتُو تَبْقى بَفْعَايْلكْ تْعيدْ**
يَا الله يَا مْدْــوَّرْ لَفْــلاَكْ بَالْقْــدارْ * بْجَاه نَبيكْ وعَرْشَكْ ميتّني شْهيدْ[7]**

يَعُود الشّيخ إلى وصف اللّسان المؤذي بالقبح، فيشبّهه بالرّصاصة، إن هي غادرت محلّها فلا مجال للتّراجع، كما أنّ الكلام السّيّئ لا تقتصر أضراره على المقصود به فقط، فلا تلبث الأيّام حتّى تدور على صاحبها، فهو يكشف العيوب ويجحد النّعم ويفرّق الجماعات. وتشبيه الشّيخ له بالرّصاص مأخوذٌ أيضاً من الكلام المتداول بين النّاس، وهذا ما يسهّل فهم المقصود والوصول إلى المراد.

***-الوحدة الخامسة:**

يا الْــمُــــوذِي للشَّومْ مْحَرَّش وَالبْــلا لُو جْبَرْتْ تْسَافَرْ في بْحَرْ بْلا قْلوعْ
بْلا عْظَــــمْ خَلقــكْ رَبِّي غيــرْ لَلْبَــلا مَنَّكْ عَيْني مَفْقُوعَة سَاكْبَة دْمُــوعْ
عْلاشْ مَا تَتْرُكْ ذَا الشّي وَتْوَابَدْ الصْلا لاَ غْنَى يَغْفَرْلَكْ عُصْيَانْ كُلْ نُــوعْ
يَا النْحيسْ مَا بينَ النَّاسْ تْبُوحْ بَالسْرَارْ عَنْدْ نَاسْ التُّوقَة ذَا الفَعْلْ مَا تْريدْ
كَالــمَدْفَعْ تَرْمــي بَــسْلاسَلْ الكْــوَارْ ومَنْ عْمَلْ بَكْلامُو يَتْسَكْنُو الْميدْ
يَا الله يَــــــا مْدَوَّرْ لَفْــلاَكْ بَــالْقْدارْ بْجَاه نَبيكْ وعَرْشَكْ ميتّني شْهيدْ[8]

في هذه الأبيات تِبيانٌ للصّلة الوثيقة بين اللّسان البذيء وجلب البلاء ونشر الكدر والشّؤم. ويذكر الشّيخ نوعاً آخر من الألسنة السّليطة؛ تلك الّتي تبوح بالأسرار وتكشف عيوب النّاس، كالمدافع تصيب البيوت فتهدّمها، وتفرّق بين ساكنيها، لذلك يؤكّد رسولُنا الكريم عليه الصّلاة والسّلام على

توخّي قولِ الحقّ إذ يقول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت.**"[9]

***-الوحدة السّادسة:**

يَا لْساني ذَا هُوَ بَاخَــسْ السَّــومْ * قسْتْني في اطْبَاقْ النّيرانْ وَالْعة**
تقولْ رَبَّاوَكْ عْفَاريتْ وَجْنُونْ قُــومْ * وَالخْلاَيَقْ مَــنَّكْ تَهْجَرْ فَازْعَــة**
رَاكْ تَعْقُدْ الْخَيْطَ الرَّاشي عْلى بْهُونْ * وَتْضَيَّق عْلى رُوحَكْ كُلْ وَاسْعَة**
مَنْ فْعَالكْ مُولاَنَا قاصَفْ الــمْطَارْ * وُزَادْ نَحْوَ الغَلَّــة جَمَّدْهَا جْمِيدْ**
وِينْ مَا صَرْشَتْ طَايْرَة مْنَ الطْيَارْ * كونْ حَاضَرْ فيهَا سَاعَة الخْوِيضْ**
يَا الله يَا مْــدَوَّرْ لَفْــلاَكْ بَالْقْدارْ * بْجَاه نَبيكْ وُعَرْشَكْ ميتّنّــي شْهيدْ**[10]

يعود الشّيخ إلى وصف اللّسان بالدّناءة، وأنّه موصل صاحبه إلى الهلاك، ناهيك عن الأذى الّذي يسبّبه للخلائق، فبه تزول النّعم، وتضيق الأرض بما رحبت، فهو يسبّب سخط الله عزّ وجل، فلا تكون مصيبة إلاّ وللّسان نصيبٌ في تفاقمها. وفيما يُروى عن الصّحابيّ الجليل أبي بكر الصّدّيق رضي الله عنه وأرضاه، أنّه كان يضع حصاةً في فيه يمنع بــها نفسه عن الكلام، وكان يشير إلى لسانه ويقول هذا الّذي أوردني الموارد[11].

***-الوحدة السّابعة:**

يدعو الشّيخ إلى ترك القيل والقال والالتزام بما يوصي به ديننا الحنيف، فمن يزرع الشّوك لا يجني العنب، لذلك يوصي الشيخ بتجنّب الإساءة لأنّها تؤدّي بصاحبها إلى التهلكة. يقول عزّ وجلّ: "سَيقولُ لكَ المُخلَّفونَ مِنَ الأَعرَاب شَغَلَتنا أموَالنُا وَأَهلوُنا فاستَغفر لَنا يقُولوُنَ بأَلسنَتهم مَا لَيس في قُلوُبهم..."-الفتح11-.

***-الوحدة الثامنة:**

يَا الْمُوذي بَالسَّطْوَة زَاغْ بيكْ نُومْ * يْحَقْ لي نَفْدي شْرَاكْ مْعَاكْ وَالحْكَامْ**
السْفَرْ بْلا زَادْ يْــورَّثْ الهْشَــومْ * اللي يْوَرْثُو يُورَثْ غيــرَ الهَمَّ الشْدَامْ**
قسْتْنِي في حَافَة ورْميتْنِي هْمومْ * غْبَرْتْنِي في دَارَ الشُّومْ عْلى الدْوَامْ**
وَالجْوَارَحْ مَرْبُوطَــة شَدْ بَالزّيَارْ * في السْجَنْ مْضَمَّنْ وُسْلاسَلَ الْحْديدْ**
كَالمْقصْ تَقْطَعْ في النَّاسْ بَالشْبَارْ * مَا تْقيلْ صْحيحْ وَلاَ تَشْفي مْريــضْ**
يَا الله يَا مْــدَوَّرْ لَفْــلاَكْ بَالْقْدارْ * بْجَاه نَبيكْ وعَرْشَكْ ميتّني شْهيدْ [13]**

يبيّن الشّيخ أنّ اللّسان مصاحبٌ للهموم وجالبٌ للشّقاء، وأنّ صاحبَه كالمسافر بِلا زاد يبنـــي آماله على السَّراب. ثمّ يعود إلى تشبيهه بالمقصّ يقطع الأواصر بين النّاس، فلا يترك صحيحاً ولا يشفي مريضاً، وكيف ذلك وهو السّبب في كلّ سوء. وقد "نهى الله عزّ وجل أن يَذكُر أَحَدٌ معايب غيره في حضرته، والطّعن في شخصه لأنّ ذلك داعيةٌ لإثارة العداوة بين أفراد المجتمع."[14]

***-الوحدة التّاسعة:**

يَا الْمُوذي وَادكُرْ رزَّاقْ كُلْ شيْ * حَيْ مَنْ لاَ يَسْهَى في المُلكْ مَا يْزُولْ**
مَنْ بْعَثْ مُحَمَّدْ وشْفَاعَة النبيْ * عْليهْ صَلَّى الله قدْ مَا عَرْضْهَا وطُولْ**
دْخيلْ عَرْضَكْ خَلِّي حَالِي عْلَى هْوَايْ * نْوادْ سَفْرَ نْــهَارْ نْعَــوَّلْ الرْحولْ**
يَا اللِّي منْ خدَّكْ النّــُورْ والنَّوَارْ * شَعْتْ بَمْدِيحَكْ يَا سُلْطَانْ كُلْ سيدْ**
يَاكْ وَلْدْ الخْلْــوفْ مْكَنِّي ليكْ جَارْ * يَاكْ وَلدي مَنْسوبْ لبيتَــكْ حْــفيدْ**
يَا الله يَا مْــدَوَّرْ لَــفْلاَكْ بَالْقْدارْ * بْجَاه نَبيكْ وعَرْشَكْ ميتّنْــي شْهيدْ[15]**

خصّص الشّيخ هذه الوحدة لمدح الرّسول عليه الصّلاة والسّلام؛ المبعوث رحمةً للعالمين من ربّ العرش العظيم، راجياً صحبته في الآخرة، مفتخراً بنسبه لآل البيت.

إذن فقصيدة الشّيخ فيها بيان لعظيم خطر اللّسان، وحثٌّ على التّمسك بالقرآن والسّنة، ففي اتّباعهما ملاذٌ من الوقوع في المعصية، فاللّسان من أكبر ما يُدخِل النّاس النّار. قال رسولنا الكريم صلّى الله عليه وسلّم: "**وهَل يكبُّ النّاس في النَّار عَلى وُجُوههم إلاَّ حصَائدُ أَلسنَتهم.**"[16] وما حثُّ الإسلام على اجتناب كثرة الكلام، إلاّ لكثرة آفات اللّسان من كذبٍ وغيبةٍ ونميمةٍ ورياءٍ وخصومةٍ وإيذاءٍ للخلق، وكلّ هذه المساوئ سهلة الإتيان يساعد عليها الشّيطان كلّ عاصٍ جبان، ويجعل لها حلاوةً في قلبه، فلا يستطيع بعد ذلك لجم لسانه[17]، لذلك فإنّ الصّمت حكمة، وإذا كان الكلام من فضّة فالسّكوت من ذهب، ففي الصّمت راحةٌ للبال، ودليل على الوقار، وفرصةٌ للتّأمل وذكر الله جلّ في علاه، وسلامةٌ من مهالك الدّنيا وعذاب الآخرة، قال عزّ وجلّ في محكم تنزيله: "**ما يلفظُ من قَولٍ الاَّ لَدَيه رَقيبٌ عَتيدٌ** "**ق–18**. وخير ما نختتم به تحليلنا هذا حديث الرّسول صلّى الله عليه وسلّم الّذي يقول فيه "**إذَا أصبَحَ ابنُ آدمَ فإنَّ الأعضَاءَ كُلَّهَا تُكَفّرُ اللّسَانَ، تَقُولُ اتّق الله فينَا فإنَّمَا نَحنُ بكَ فَإن استقَمتَ استقَمنا وإن اعوَجَجتَ اعوَجَجنَا.**"[18]، وهذا كنَاية عن تنزيل الأعضاء اللّسان منزلة الكافر بالنّعم .

-الإحالات :

1-سيدي لخضر بن خلوف-حياته وقصائده-،ج1، منشورات جمعيّة آفاق مستغانم، دار الغرب للنّشر والتّوزيع، ص: 245

2- إحياء علوم الدّين، أبو حامد الغزاليّ، ج3، مكتبة عبد الوكيل الدّروبيّ، دمشق، سورية، ص: 94 بتصرّف.

3- سيدي لخضر بن خلوف- حياته وقصائده-، ج1، ص: 245.

4- روح الدّين الإسلاميّ، عفيف عبد الفتّاح طبّارة، ط19، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ص 235 .

5 - سيدي لخضر بن خلوف- حياته وقصائده-، ج1، ص: 245.

6 - إحياء علوم الدّين، أبو حامد الغزاليّ، ج3، ص: 95.

7- سيدي لخضر بن خلوف- حياته وقصائده-، ج1، ص: 245.

8- المصدر نفسه، ج1، ص: 246.

9- منهاج الصّالحين من أحاديث وسنّة خاتم الأنبياء والمرسلين لعزّ الدّين بليق، دار الفتح، للطّباعة والنّشر، ط4، 1405هـ - 1985 م، بيروت، لبنان، ص: 286 .

10 - سيدي لخضر بن خلوف -حياته وقصائده -، ج1، ص: 246 .

11 - إحياء علوم الدّين، أبو حامد الغزاليّ، ج3، ص: 95.

12 - سيدي لخضر بن خلوف- حياته وقصائده-، ج1، ص: 246.

13-المصدر نفسه، ج1، ص: 246.

14 - روح الدّين الإسلاميّ، عفيف عبد الفتّاح طبّارة، ط 19، ص: 234.

15 - سيدي لخضر بن خلوف- حياته وقصائده-، ج1، ص: 246.

16 - تربيّة الأولاد في الإسلام، عبد الله ناصح علوان، دار الشّهاب، ج1، ص: 179.

17 - إحياء علوم الدّين، أبو حامد الغزاليّ، ج3، ص: 96 بتصرف .

18 - منهاج الصّالحين، عزّ الدّين بليق، ص: 270.